صاحب الكرامات

لقد كتبنا عن الكرامات كثيراً فى بعض كتبنا، فلا نعيد ما سبق أن كتبنا، ويكفينا هنا أن نقول:

إن القرآن الكريم ذكر الكثير من الكرامات، والكثير من المعجزات فكل مسلم - إذن - يؤمن بها . . إن الإيمان بها جزء من الإيمان الإسلامى.

وبهذا ينحصر الخلاف عند المسلمين فى صحة الرواية وفى دقة النقل، فمن اعتقد بصحة الرواية ودقة النقل سَلَّم بالكرامة، ومن شك فى الصحة أنكر، وكلاهما يؤمن مع القرآن بأن الله قد أجرى الكثير من المعجزات على أيدى الأنبياء، والكثير من الكرامات على أيدى الصالحين.

وقد رُويت عن ذى النون كرامات كثيرة، وروى الشيخ الأكبر بعضها . . ومما رواه الشيخ الأكبر ما يذكره صاحب «الكواكب الدرية» بقوله:

«ومن مقاماته الفائقة، وأحواله المدهشة الخارقة، أن روحه الشريفة كانت تدبر أجساماً متعددة، فقد قال العارف ابن عربى: الروح الواحد يدبر أجساماً متعددة، إذا كان له الاقتدار على ذلك، ويكون ذلك فى الدنيا للولىّ بخرق العادة، وفى الآخرة نشأة الإنسان تعطى ذلك.

قال: وكان ذو النون المصرى، وقضيب البان، ممن له هذه القوة، كما يدبر الروح الواحد سائر أعضاء البدن؛ من يد ورجل وسمع وبصر، وكما تؤاخذ النفس بأفعال الجوارح على ما وقع منها، فكذا

هذه الأجسام التى تدبرها روح واحدة، أى شىء وقع منها يسأل عنه ذلك الروح الواحد، وإن كان عين ما يقع من هذا الجسم عين ما يقع مع الآخر » . . اهـ .

وروى ابن باكويه فى كتاب « أخبار العارفين » عن أبى العباس قال:

كنت ماراً بمصر، فرأيت حلقة، فإذا رجل تعلق بآخر، والدم يسيل على ثيابه، فوقف عليهم ذو النون وقال: **ما لك ؟..**

قال: هذا كسر ضرسى، فأخذ ضرسه ووضعه فى مكانه وقرأ عليه؛ فإذا بالضرس كما كان، فلما تفرق الناس عنه تعلّقت به، وقلت:

« أرى معك اسم الله الأعظم » . فقال: « **تَنَحَّ عنّى** » . فقلت: «لا أفارقك أو تعلّمنيه » . . فأقبل علىَّ وقال:

« **يا هذا، إذا رَقَّ قلبك فادعُ بما شئتَ، فذاكَ اسمُ الله الأعظم** » .

وعن أبى عبد الله بن الجلاء، قال:

« كنت مع ذى النون بمكة، فجعنا أياماً، فقام يوماً ذو النون قبل الظهر، فصعد الجبل للطهارة، وأنا معه أحمل الماء، فرأيت قشور الموز فى الوادى، فأخذت قطعتين أو ثلاثاً، فقلت: إذا تباعد الشيخ للطهارة آكل هذا، فلما صعدنا الجبل وتباعدنا عن الناس قال: **ارْمِ قشورَ الموز**. فرميت، فمضى وفرغ من وضوئه، ورجعنا إلى المسجد وصلينا وجلسنا، وإذا شاب يجىء ومعه طبق، فقال له الشيخ: **اتركه**. ثم قال لى: **كُلْهُ**. قلت: وحدى ؟! فقال: **أنت طلبته، وأنا لم أطلبه**. فأكلت وحدى وأنا خَجِلٌ.

* * *

السائح

ذكر الله تعالى من أوصاف المؤمنين أنهم « **السائحون** » . . فمن هم السائحون ؟

أخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة ، أنهم : طلبة العلم ؛ لأنهم يسيحون فى الأرض لطلبه .

وروى أبو داود فى سننه من حديث أبى أمامة أن رجلاً قال :

ـ يا رسول الله ، ائذن لى فى السياحة ؟

فقال النبى ﷺ :

« **سياحة أمَّتى الجهاد فى سبيل الله** » .

إن كلمة «السياحة» كلمة شريفة ، وصف الله سبحانه وتعالى بها المؤمنين ، وهى تدل على معنيين :

أحدهما: السفر من أجل طلب العلم . .

وذلك أن الله سبحانه وتعالى قد أشاد بالعلم والعلماء فى كتابه العزيز ، ورسول الله ﷺ تحدث عن العلم والعلماء ، وبيَّن أن العلماء ورثة الأنبياء ، وأن الأنبياء لم يورِّثوا ديناراً ولا درهماً ، وإنما ورَّثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر .

ولقد سافر علماء الإسلام من أجل طلب العلم أسفاراً ، هى من الكثرة بحيث لا يستطيع عادٌّ أن يعدها .

وأما **المعنى الثانى** « للسياحة » : فإنه السفر تَعبُّداً واعتباراً ، وعظة واستجماماً روحياً ، وتفرغًا لله سبحانه أسبوعاً أو أسبوعين ، إنه

سفرٌ روحيٌّ فى مقابلة السفر للاستجمام الجسمانىِّ .

والناس إذا كان أكثرهم يسافرون للاستجمام الجسمانى فإن بعض المؤمنين يسافرون استجماماً روحياً إلى الحج ، أو إلى زيارة ولى من أولياء الله ، أو إلى الخلوة مع الله فترة من الزمن تطول أو تقصر ، بحسب الفراغ المتاح والظروف المناسبة .

ومما ذكره صاحب كتاب « محاسن التأويل » عند شرح هذه الكلمة الشريفة :

« ونقل الرازى عن أبى مسلم أن السائحين السائرون فى الأرض ، وهو مأخوذ من (السّيح) سيح الماء الجارى ، والمراد به : من خرج مجاهداً مهاجراً .

وتقريره أنه تعالى حث المؤمنين فى الآية الأولى على الجهاد ، ثم ذكر هذه الآية فى بيان صفات المجاهدين ، فينبغى أن يكونوا موصوفين بجميع هذه الصفات .

وروى مثله ابن أبى حاتم ، عن عبد الرحمن ، أنه قال : هم المهاجرون .

وعن عكرمة أنهم : المنتقلون لطلب العلم .

قال ابن كثير :

جاء ما يدل على أن السياحة الجهاد ، فقد روى أبو داود من حديث أبى أمامة أن رجلاً قال : يا رسول الله ، ائذن لى فى السياحة؟ فقال النبى ﷺ :

« سياحة أمَّتى الجهاد فى سبيل الله » .

أقول: لو أخذ هذا الحديث تفسيراً للآية لالتقى مع كل ما روى عن السلف فيها.

لأن الجهاد فى سبيل الله، كما يُطلَق على قتال المشركين يطلق على كل ما فيه مجاهدة للنفس فى عبادته تعالى، ومنه الهجرة والصوم، والسفر للتفقه فى الدين أو للاعتبار، بل ذلك هو الجهاد الأكبر.

هذا على إرادة التوفيق بين المأثورات.

أما لو أريد باللفظ أصل حقيقته اللغوية، أعنى: الضرب فى الأرض خاصة، الذى عبر عنه عكرمة بالمتنقلين لطلب العلم، لكان بمفرده كافياً فى المعنى مشيراً إلى وصف عظيم، وهذا ما حدا بأبى مسلم أن يقتصر عليه، وهو الحق فى تأويل الآية» .. اهـ.

ولقد كان ذو النون المصرى من أكثر الناس سياحة، وكان فى سياحاته كثير الملاحظات لما يراه من مشاهد العظة والاعتبار، وكان يقص بعض ما جرى له فى سياحاته من أمور تفيد الناس فى صلتهم بربهم، وتفيدهم فى تهذيب أخلاقهم وزيادة الشفافية فى نفوسهم.

أما هذه السياحات - إذا نظرنا إليه هو - فإنها كانت من هوى نفسه.

لقد خلقه الله طلعةً محباً للعلم، عاملاً على كشف المجهول، مرتاداً لكل مجالات المعرفة، ومن هذه المجالات مجال المعرفة للأماكن والبقاع التى لم يرها، إنه مجال معرفة للعظة والاعتبار والتفكر، والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾(١).

ويقول سبحانه:

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾(٢).

ويقول أيضاً:

﴿ أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾(٣).

ويقول تعالى:

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾(٤).

من أجل كل ذلك ساح ذو النون، ساح طالباً للعلم، وساح متعبداً، وساح مفكراً.

ونذكر الآن بعض سياحاته:

---

(١) سورة آل عمران: ١٩٠، ١٩١.
(٢) سورة النمل: ٦٩.
(٣) سورة غافر: ٢١.
(٤) سورة فصلت: ٥٣.

يا أمل المؤمِّلين :

عن محمد بن أحمد الشمشاطى قال : سمعت ذا النون المصرى يقول :

بينما أنا سائر على شاطئ نيل مصر . . إذا أنا بجارية تدعو وهى تقول فى دعائها :

« يا من هو عند ألسُن الناطقين، يا من هو عند قلوب الذاكرين،يا من هو عند شكر الحامدين ، يا من هو على نفوس الجبَّارين والمتكبرين.. قد علمت ما كان منى يا أمل المؤمِّلين ».

قال : ثم صرختْ صرخة وخرَّتْ مغشيًا عليها . .

إذا اعتللتَ فلا تجعلْ علَّتك إلى مخلوق مثلك :

قال : وسمعت ذا النون يقول :

دخلتُ إلى شواطئ نيل مصر ، فجاءنى الليل ، فقمتُ بين زروعها ، فإذا أنا بامرأة سوداء قد أقبلتْ إلى سنبلة ففركتها ، ثم امتنعتْ عليها فتركتها وبكتْ وهى تقول :

« يا من بَرأه حَبّاً يابساً فى أرضه ، ولم يَكُ شيئاً ، أنت الذى صيَّرته حشيشًا ، ثم أنبتَّه عوداً قائماً بتكوينك ، وجعلتَ فيه حَبّاً متراكباً ، ودوَّرته فكوَّنته وأنت على كل شىء قدير » . .

وقالت : **« عجبت لمن هذه مشيئته كيف لا يُطاع ؟! وعجبتُ لمن هذا صُنْعه كيف يُشْتَكى ؟! » . .**

فدنوت منها فقلت : من يشكو أمل المؤمِّلين ؟ . .

فقالت لى :

« أنت يا ذا النون ، إذا اعتللتَ فلا تجعلْ علَّتك إلى مخلوق مثلك .. واطلب دواءك ممن ابتلاك .. وعليك السلام .. لا حاجة لى فى مناظرة الباطلين » . .

ثم أنشأت تقول :

وكيفَ تنامُ العينُ وَهْىَ قَريرةٌ ولم تَدْرِ فى أىِّ المحلَّينِ تنزلُ ؟

إن المحب هو الصبور :

وعن أبى عثمان سعيد بن الحكم قال : سمعت أبا الفيض ذا النون ابن إبراهيم يقول :

بينما أنا أسير ذات ليلة ظلماء فى جبال بيت المقدس ، إذ سمعت صوتًا حزيناً وبكاءً جهيراً ، وهو يقول :

« يا وحشتاه بعد أنسنا ، يا غربتاه عن وطننا ، وا فقراه بعد غنانا ، وا ذُلاَّه بعد عِزِّنا » . .

فتبعتُ الصوت حتى قربت منه ، فلم أزل أبكى لبكائه حتى إذا أصبحنا نظرت إليه فإذا رجل ناحل كالشَّنِّ المحترق ، فقلت : يرحمك الله ، لِمَ تقول مثل هذا الكلام ؟

فقال :

« دَعْنى فقد كان لى قلب فقدته » . .

ثم أنشأ يقول :

قَدْ كانَ لى قلبٌ أعيشُ به بينَ الوَرَى فرَمَاهُ الحبُّ فاحْتَرَقَا

فقلت له :

لِمَ تشتكى ألمَ البَلاءِ وأنتَ تنتحلُ المَحَبَّهْ
إنَّ المحبَّ هو الصَّبُورُ على البَلاءِ لمن أحَبَّهْ
حُبُّ الإلهِ هو السُّرورُ مع الشِّفاءِ لكل كُرْبَهْ

من يَرْجُ النجاة يجتهدْ :

وعن إسرافيل قال : سمعت ذا النون يقول :

سمعت بعض المتعبدين بساحل بحر الشام يقول :

« إن لله عبادًا عرفوه بيقين من معرفته ، فشمَّروا قصدًا إليه ، احتملوا فيه المصائب لما يرجون عنده من الرغائب ، صحبوا الدنيا بالأشجان، وتنعَّموا فيها بطول الأحزان، فما نظروا إليها بعين راغب، ولا تزوَّدوا منها إلا كزاد الراكب ، خافوا البيات فأسرعوا ، ورجوا النجاة فأزمعوا ، بذكره لهجت ألسنتهم فى رضا سَيِّدهم ، نصبوا الآخرة نُصب أعينهم ، وأصغوا إليها بآذان قلوبهم ، فلو رأيتهم رأيت قوماً نبلاً شفاههم ، خُمصاً بطونهم، حزينة قلوبهم، ناحلة أجسامهم ، باكية أعينهم ، لم يصحبوا العلل والتسويف ، وقنعوا من الدنيا بقُوتٍ طفيف، لبسوا من اللباس أطماراً بالية، وسكنوا من البلاد قفارًا خالية ، هربوا من الأوطان، واستبدلوا الوحدة من الإخوان ، فلو رأيتهم لرأيت قوماً نبحهم الليل بسكاكين السهر ، وفصل الأعضاء منهم بخناجر

التعب ، خُـمْصٌ لطول السُّرَى ، شُـعْثٌ لفقد الكَرَى ، قـد وصلوا الكَلاَلَ بالكَلاَل ، وتأهبوا للنقلة والارتحال » .

بين جبال الشام:
يا من استأنس به المجتهدون فوجدوه سريعًا مجيبًا

وعن محمد بن أحمد الشمشاطى ، قال : سمعت ذا النون يقول : بينما أنا سائر بين جبال الشام ، إذا أنا بشيخ على قطعة من الأرض ، قد تساقط حاجباه على عينيه كِبَرًا ، فتقدمت إليه ، فسلمت عليه فردَّ عليَّ السلام ، ثم أنشأ وهو يقولَ بصوت عليل :

« يا من دعاه المذنبون فوجدوه قـريباً ، ويا من قصد إليه الزاهدون فوجدوه حبيباً ، ويا من استـأنس به المجتهدون فوجدوه سريعاً مجيباً » . .

ثم أنشأ يقول :

وَلَهُ خَصَائصُ مُصْطَفين لحبِّهِ اخْتَارَهم فى سَالفِ الأزمانِ
اخْتَـارَهم مِنْ قَبْلِ فِطْرةِ خَـلْقهِ فَـهُمُ ودائعُ حِكْـمَـةٍ وبَيَـانِ

ثم صرخ صرخة فإذا هو ميت .

فى بلاد العرب :
لا تترك الزاد ليوم معادك

وعن سعيد بن عثمان ، قال : سمعت ذا النون يقول :

بينما أنا سائر فى بلاد العرب ، إذا أنا برجل على عريش من البلُّوط ، وعنده عين ماء تجرى ، فأقمت عليه يوماً وليلة أريد أن أسمع كلامه ، فأشرف علىَّ بوجهه ، فسمعته يقول :

« شهد قلبى لك بالنوازل، وكيف لا يشهد قلبى بذلك وكل أمورهم إليك، فحسب من اغترَّ بك أن يألف قلبه غيرك، هيهات هيهات، لقد خاب لديك المقصِّرون، سَيِّدى، ما أحلى ذكرك ، أليس قَصَدَك مؤمِّلوك فنالوا ما أمَّلوا، وجُدْتَ لهم منك بالزيادة على ما طلبوا ؟ ».

فقلت له : يا حبيبى ، إنى مقيم عليك منذ يوم وليلة أريد أن أسمع من كلامك .

فقال لى :

« قد رأيتكَ يا بَطَّال حين أقبلتَ ، ولكن ما ذهبَ رَوْعُكَ من قلبى إلى الآن » . .

فقلت له : ولمَ ذلك . وما الذى أفزعك منى ؟

فقال :

« بطالتُكَ فى يوم عملكَ ، وفَراغُكَ فى يوم شُغلكَ . وتَرْكُكَ الزاد ليوم معادك، ومقامُكَ على المظنون » .

فقلت : إن الله تعالى كريم ، ما ظن به أحدٌ شيئاً إلا أعطاه .

فقال :

« إنه لكذلك إذا وافقه العمل الصالح والتوفيق » .

فى بلدة شاهرت :

وعن سعيد بن عثمان ، قال : سمعت ذا النون يقول :

وُصفَ لى رجل بشاهرت، فقصدته، فأقمت على بابه أربعين يوماً، فلما كان بعد ذلك رأيته، فلما رآنى هرب منى، فقلت له: سألتك بمعبودك إلا وقفت علىَّ وقفة، فوقف، فقلت: سألتك بالله بم عرفت الله، وبأى شىء تعرَّف إليك الله حتى عرفته؟

فقال لى:

« نعم، رأيتُ لى حبيباً إذا قربتُ منه قرَّبنى وأدنانى، وإذا بعدتُ نادانى، وإذا قمتُ بالفترة رغَّبنى ومنَّانى، وإذا عملتُ بالطاعة زادنى وأعطانى، وإذا عملتُ بالمعصية صبرَ علىَّ وتَأنَّانى، فهل رأيت حبيبًا مثل هذا؟.. انصرفْ عنى ولا تشغلنى ». . ثم ولَّى.

فى تيه بنى إسرائيل:

وعن سعيد بن عثمان، قال:

« كنت مع ذى النون فى تيه بنى إسرائيل، فبينما نحن نسير إذا بشخص قد أقبل، فقلت: يا أستاذ، شخص.

فقال لى:

انظر، فإنه لا يضع قدمه فى هذا المكان إلا صدِّيق. فنظرت فإذا امرأة، فقلت: إنها امرأة، فقال: صدِّيقة ورب الكعبة، فابتدر إليها، وسلَّم عليها، فردَّت السلام ثم قالت:

ما للرجل ومخاطبة النساء؟!..

فقال لها: إنى أخوك ذو النون، ولست من أهل التُّهم.

فقالت:

مرحباً، حيَّاك الله بالسلام.

فقال لها: ما حَمَلَكِ على الدخول إلى هذا الموضع ؟

فقالت: آية فى كتاب الله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴾(١) . .

فكلما دخلت إلى موضع يُعصَى فيه لم يهننى القرار فيه بقلب قد أَبْهَلَتْهُ شِدَّةُ محبته، وهام بالشوق إلى رؤيته.

فقال لها: صِفِى لى.

فقالت: يا سبحان الله، أنت عارف تتكلم بلسان المعرفة، تسألنى؟!

فقال: يحق للسائل الجواب.

فقالت: نعم، المحبة عندى لها أول وآخر، فأولها: لهج القلب بذكر المحبوب، والحزن الدائم، والتشوق اللازم، فإذا صاروا إلى أعلاها شغلهم وجدان الخَلَوات عن كثير من أعمال الطاعات » . .

ثم أخذت فى الزفير والشهيق، وأنشأت تقول:

أُحِبُّكَ حُبَّين :حُبَّ الهَوَى ... وحُبّاً لأنكَ أهلٌ لذَاكَا

فَأمَّا الذى هو حُبُّ الهَوَى ... فَذِكْرٌ شُغلتُ به عَمَّن سِوَاكَا

وأمَّا الَّذِى أنتَ أهلٌ لَهُ ... فَكَشْفُكَ لى الحُجْبَ حَتَّى أرَاكَا

فَمَا الحمدُ فِى ذا ولا ذَاكَ لِى ... ولكنْ لَكَ الحَمْدُ فِى ذَا وذَاكَا

ثم شهقتْ فإذا هى قد فارقت الدنيا » . .

---

(١) سورة النساء: ٩٧ .

على شاطئ نيل مصر:

وعن محمد بن أحمد الشمشاطى قال : سمعت ذا النون يقول :

« بينما أنا سائر على شاطئ نيل مصر إذا أنا بجارية عليها دباء شعث الكلال[1]، وإذا القلب منها متعلق بحب الجبَّار، وهى منقطعة فى نيل مصر ، وهو يضطرب بأمواجه ، فبينما هى كذلك إذ نظرت إلى حوت ينساب بين الوجبتين، فرنت بطرفها إلى السماء وبكت وأنشأت تقول :

« لك تفرَّد المتفرِّدون فى الخَلَوات ، ولعظيم رجاء ما عندك سَبَّحَ الحيتان فى البحور الزاخرات ، ولجلال هيبتك تصافقت الأمواج فى البحور المستفحلات ، ولمؤانستك استأنستْ بك الوحوش فى الفَلَوات ، ولجُودكَ وكرمك قصدتُ إليك يا صاحبَ البِرِّ والمُسَامَحَات » . . ثم ولّت عنى وهى تقول :

يا مُؤْنِسَ الأبرارِ فى خَلَواتهمْ ... يا خيرَ مَنْ حَطَّتْ به النزَّالُ

مَنْ نالَ حبكَ لا ينالُ تَفجُّعاً ... القلبُ يَعلمُ أنَّ ذاكَ مُحَالُ

ثم غابت عنى فلم أرها، فانصرفت وأنا حزين القلب ضعيف الرأى» .

فى مقبرة البصرة :

وحدَّث يوسف بن الحسين : قال بعض الصوفية :

---

(١) أى : ثياب بالية .

سمعت ذا النون يقول :

رأيت سعدون فى مقبرة البصرة، فى يوم حار، وهو يناجى ربه، ويقول بصوت عال :

« **أحدٌ، أحد** » . . فسلَّمت عليه ، فردَّ علىَّ السلام :

فقلت : بحقٍّ من ناجيته إلا وقفت . .

فوقف ثم قال لى :

« **قُلْ وأوجِزْ** » . .

قلت : توصينى بوصية أحفظها منك، وتدعو لى بدعوة .

فأنشأ يقول :

يا طَالبَ العِلْمِ هَـهُنَا وهُنَـا ... ومَعْـدِنُ العلمِ بـينَ جَنْبَيْكَا

إنْ كُنْتَ تَبغى الجِنانَ تَسكنُها ... فأذرفِ الدمعَ فـوقَ خَدَّيْكَا

وقُـمْ إذا قَـامَ كُـلُّ مُجْتَهِـدٍ ... تَدْعُوه كَى مَا يقـول لَبَّيْـكَا

ثم مضى وقال :

« **يا غِيَاثَ المستغيثين أَغِثْنِى** » . .

فقلت له : ارفقْ بنفسك، فلعله يلحظك فيغفر لك، فصرف يده من يدى، وعَدَا (١) وهو يقول :

أَنِسْتُ بِهِ فَـلا أَبْغِـى سِـوَاهُ ... مَخَافَةَ أَنْ أَضِـلَّ فَـلاَ أَرَاهُ

فَحَسْبُكَ حَسْرَةً وَضَناً وَسُقْماً ... بِطَرْدِكَ مِنْ مَجَالِسِ أَوْلِيَاهُ.

---

(١) أسرع وجرى.

سياحة فى طلب المباح :

وحدَّث يوسف بن الحسين عن الفتح بن شخرف ، قال :

سمعت ذا النون يقول :

خرجت فى طلب المباح ، فإذا أنا بصوت ، فعدلت إليه ، فإذا أنا برجل قد غاص فى بحر الوَلَه ، وخرج على ساحل الكَمَه[1] ، يقول فى دعائه :

« أنت تعلم أن الإصرار مع الاستغفار لؤم ، وتَركى الاستغفار مع معرفتى بسعة عفوك عجز ، يا إلهى أنت خصصتَ خصائصك بخالص الإخلاص ، وأنت الذى تضنُّ بضنائنك عن شوائب الانتقاص ، وأنت الذى سلَّمت قلوب العارفين عن اعتراض الوسواس ، وأنت الذى آنست الآنسين من أوليائك ؛ فأعطيتهم كفاية رعاية ولاية المتوكِّلين عليك ، تكلؤهم فى مضاجعهم ، وتطَّلع على سرائرهم ، وسِرّى عندك مكشوف ، وأنا إليك ملهوف ، وأنت بالإحسان معروف » . .

ثم سكت فلم أسمع له صوتاً .

فى بيت الله الحرام :

وحدَّث محمد بن يزيد قال : سمعت ذا النون يقول :

خرجت حاجّاً إلى بيت الله الحرام . . فبينما أنا بالطواف إذا بشخص متعلِّق بأستار الكعبة ، وإذا هو يبكى ويقول فى بكائه :

---

(١) الذهول وتغيُّر اللون .

« كتمتُ بلائى عن غيرك ، وبُحْتُ بسرِّى إليك ، واشتغلتُ بك عَمَّن سواك...عجبتُ لمن عرفكَ كيف يسلو عنك ، ولمن ذاق حبك كيف يصبر عنك ؟! » . .

ثم أنشأ يقول :

ذَوَّقْتَنِى طِيْبَ الوِصَالِ فَزِدْتَنِى شَوْقاً إليكَ مُخَامِرَ الحَسَرَاتِ

ثم أقبل على نفسه فقال :

« أَمْهلكَ فما ارعويتَ ، وسَتَرَ عليكَ فما استحييتَ ، وسلبكَ حلاوة المناجاة فما باليتَ » .

قال : فلم أتمالك أن أتيت الكعبة مستخفياً ، فلما أحس تَجَلَّل بخمار كان عليه ثم قال : « يا ذا النون، غُضَّ بصرك من مواقع النظر ؛ فإنى حرام » . . فعلمت أنها امرأة .

ثم أنشأت تقول :

لَمْ أَذُقْ طَعْمَ وَصْلِكَ حَتَّى زَالَ عَنِّى مَحَبَّتى لِلأنامِ

ثم قالت :

« أَوْجَعْتَنِى، أَمَا علمتَ انه لا يُبْلَغُ إليه إلا بِتَرْكِ مَنْ دُوْنَهُ » . .

فى بعض سياحاته :

وقال ذو النون : رأيت فى سياحتى شيخاً ، فقلت :

ـ كيف الطريق إلى الله ؟

قال :

« دَعْ طريق الخلاف والاختلاف ».

قلت : أليس اختلاف العلماء رحمة ؟

قال :

« **إلا فى تجريد التوحيد** ».

قلت : ما تجريده ؟

قال :

« **فقدان رؤية ما سواه لوجدانه** » .

قلت : أوَ ليس من عرف الله طال هَمُّه ؟

قال :

«**بَلْ مَنْ عَرَفَهُ زَالَ هَمُّه** » .

قلت : هل يكون العارف مسروراً ؟

قال :

« **وهل يكون محزوناً ؟!**» .

قلت : أليس من عرف الله صار مستوحشاً ؟

قال :

« **معاذَ الله ، بل يكون مهاجراً متجدداً** » .

قلت : وهل يأسف العارف على شيء غير الله ؟

قال :

« **وهل يعرفُ اللهَ فيأسف عليه** » .

قلت : وهل يشتاق إلى ربه ؟

قال :

« **وهل يغيب عنه طرفةَ عينٍ حتى يشتاقه ؟!**» .

obeikandl.com

قلت : ما اسم الله الأعظم ؟

قال :

« أن تقول « الله » وأنت تَهَابُه » .

قلت : كثيراً ما أقوله ولا تداخلنى هيبة .

قال :

« لأنك تقول « الله » من حيث أنت، لا من حيث هو» .

قلت : عِظْنى .

قال :

« حَسْبُكَ من الموعظة عِلْمُكَ بأنه يراك » .

قلت : فما تأمرنى ؟

قال :

« لاطِّلاعه عليك فى كل أحوالك ؛ لا تَنْسَهُ».

وعن إسرافيل قال : سمعت ذا النون يقول :

نظرت إلى رجل فى بيت المقدس ، قد استغرقه الوَلَهُ، فقلت له : ما الذى أثار منك ما أرى ؟

قال :

« ذهب الزُّهَّاد والعُبَّاد بصَفْو الإخلاص ، وبقيتُ فى كَدَرِ الانتقاص ، فهل من دليل مرشد أو حكيم موقظ ؟ » .

obeikandl.com

فى نواحى الشام :

ومن وقائعه فى سياحاته ما حكى ، قال :

« بينما أنا أسير فى نواحى الشام إذ وقعت على روضة خضراء ، وإذا بشاب يصلى تحت شجرة ، فسلمت ، فأوجز فى صلاته ولم يرد ، ثم كتب بإصبعه فى الأرض :

مُنِعَ اللسَانُ مِنَ الكَلامِ لأنَّـهُ سَبَبُ الفَسَادِ وَجَالِبُ الآفَاتِ

فَإذا نَطَقْتَ فَـكُنْ لِرَبِّكَ ذَاكِراً وَإذَا سَـكَتَّ فَـعُدَّ مَـوْتَكَ آتِ

قال : فبكيت وكتبت بإصبعى فى الأرض :

وَمَـا مِنْ كَاتِـبٍ إلا سَيَبْلَى وَيُبْقِى الدَّهْرُ مَا كَتَـبَتْ يَدَاهُ

فَلاَ تَكْتُبْ بِكَفِّكَ غَيْرَ شَيْءٍ يَسُرُّكَ فِى القِيَامَـةِ أَنْ تَـرَاهُ

فصاح الشاب فمات ، فقمت لأجهزه وأدفنه ، وإذا بقائل : خَلِّ عنه فإن الله وعده ألاّ يتولاه إلا ملائكته ، فالتفتُّ فلم أره » .

فى بعض سياحاته :

وقال : « بينما أنا أسير فى بعض سياحاتى إذا أنا بصوت حزين كئيب موجع القلب ، أسمع الصوت ولا أرى الشخص وهو يقول :

« سبحان مُفْنِى الدهور ، سبحان مُخَرِّب الدور ، سبحان باعث من فى القبور ، سبحان مُميت القلوب » . .

فاتبعت الصوت فإذا بإنسان يقول :

« سبحان من لا يَسَعُ الخَلْقَ إلا سَتْرُه ، سبحانك ما ألطفكَ بمن خالفك ، وأوفاك بعهدك ، سبحانك ما أحلمك على من عصاك » . .

ثم قال :

« سَيِّدى ، بحِلْمِكَ نطقتُ، وبفضلكَ تكلمتُ ، فيا إلهَ من مضى قبلى ومن يكون بعدى ، بالصالحين ألحِقْنى ، ولأعمالهم وَفِّقْنى» . .

ثم قال :

« إن الزُّهَّاد والعُبَّاد نزل بهم الزمان فأبلاهم ، وحَلَّ بهم البلاء فأفناهم، فهل أنتظر إلا مثل ما أصابهم ؟» . . فانصرفت وتركته باكياً» .

على جبل المقطم :

وقال : «وُصِفَ لى رجل بجبل المقطم فقصدته ، فمكثت عنده أربعين يوماً ثم سَألته ، فقلت : فيم النجاة ؟

قال :

فى التقوى والمراقبة.

قلت : زدنى .

قال :

فرَّ من الخَلْق ولا تأنسْ بهم .

قلت : زدنى .

قال :

إن لله عباداً أطاعوه ؛ فسَقَاهُم كأساً من محبته ، فهم فى شربهم عِطَاشٌ ، وفى عطشهم أرويا ء . . ثم تركنى » .

فى التيـــه :

وقال : صحبت زنجيّاً فى التيه ، فكان إذا ذكر الله ابيضَّ ، فورَد علىَّ أمر عظيم ، فسألته ، فأنشد :

ذَكَرْنَـا وَمَا كُـنَّا نَسِينـــا فَنَـــذْكُـرُ وَلَكِنْ نَسِيمُ القُـرْبِ يَبْـدُو فَيَظْهَـرُ

ثم قال أيضاً :

أنـتَ فـى غَـفْلَـةٍ وقَلْبُـكَ سَـاهِى نَفِـدَ العُـمْـرُ والذنوبُ كَـمـا هِـى
جَـمَّةٌ أُحْـصِـيَتْ عَليـكَ جَمِـيعـاً فِـى كِـتَـــابٍ .. وأنتَ عَنْ ذَاكَ لاهِ
لَـمْ تُبَـادِرْ بِتَـــوْبَةٍ مِنْـــكَ حَـتَّى صِرْتَ شَـيْخـاً فَحَبْـلُكَ اليَوْمَ وَاهِ
فَاجْـتَـهِدْ فِى فِكَاكِ نَفْسِكَ واحْذَرْ يَـوْمَ تَبْـدُو السِّـمَاتُ فَوْقَ الجِبَاهِ

قال ذو النون :

« فمَا طَرَقَ سمعى مـثل حكمة ذلك الزنجىّ ، فعلمت أن للـه تعالـى عـبـاداً تعلـو قلوبـهـم بالأذكـار كمـا تعلو الأطيـار فى الأوكـار، لو فتشت منهم القلوب لما وجدت فيها غير حب المحبوب » .

فى جبل نيسان :

وقال : «اجتمعت فى جبل نيسان بامرأة متعبدة كالشَّنِّ البالى كأنها تخبر عن أهل المقابر ، فسألتها : أين وطنك ؟

قالت :

ما لى وطن إلا النار ، أو يعفو العزيز الغفار.

قلت : هل من وصية ؟

قالت :

شَمِّرْ عن ساق الجد ، وَدَعْ ما يتعلق به البَطَّالون من الرجاء الكاذب الذى لا تحقيق لـهم فيه ، ولا يدرون كيف العواقب ، فـوالله لا يَرِدُ غدًا المنازل إلا المضمِّرون[1] » .

فى جبال بيت المقدس :

وقال : بينما أنا أسير فى جبال بيت المقدس ، إذ سمعت قائلاً يقول :

« ذهبتِ الآلام عن أبـدان الخُـدَّام ، ولهـيتْ بالطاعـة عن الـشـراب والطعام ، وألفتْ أبدانهم طولَ القيام بين يَدَىِ الملك العلاَّم » .

فتبعت الصوت فإذا شاب قد علاه اصفرارٌ ، فلما رآنى توارى منى بالشجر .

فقلت له : ليس الجفاء من أخلاقهم ، فأوصنى .

فخرَّ ساجداً وجعل يقول :

« هذا مقام مَنْ لاذَ بك ، واسـتجار بمعرفتك ، وألِفَ محبـتك ، فيا إلهَ القلوب وما تحـويه من جلال عظمتك : احجـبنى عن القاطعين لى عنك » . . ثم غاب فلم أره .

---

(١) الذين استعدوا من قبل .

فى جبل لبنان :

وقال : « رأيت فى جبل لبنان رجلاً أغْبَرَ نحيفاً يصلى ، فسلَّمتُ فَرَدَّ ، فما زال راكعاً ساجداً حتى صلى العصر ، ثم استند إلى حجر ولم يكلمنى .

فقلت : ادْعُ لى .

قال :

آنسك الله بقربه.

فقلت : زدنى .

قال :

مَنْ آنسه الله بقربه أعطاه أربعاً : عِزّاً من غير عشيرة ، وعلماً من غير طلب ، وغِنًى بغير مال ، وأُنساً بغير جماعة .

ثم شهق فلم يفق إلا بعد ثلاث ساعات .

فقال :

انصرفْ عنى بسلام.

قلت : أوصنى .

قال :

أحببْ مولاك ولا تُرِدْ بحبه بدلاً ».

على شاطئ غدير :

وقال ابن باكويه : حدثنا بكر بن أحمد الجيلى ، قال : سمعت يوسف بن الحسين الرازى يقول :

obeikandl.com

« كنت مع ذى النون المصرى ، على شاطئ غدير . . فنظرنا فإذا بضفدع خرج من الغدير فركبه عقرب ، وجعل الضفدع يسبح حتى عبر ، فقال ذو النون : **إن لهذا العقرب لشأناً فامضِ بنا نقفو على أثره.** فإذا رجل نائم سكران ، وإذا حية قد جاءت ، فصعدت إلى صدره وهى تطلب أذنه ، فاستحكمت العقرب من الحية فضربتها ، فانقلبت فانفسحت ، ورجعت العقرب ونزلت إلى الغدير وجاءت الضفدع بها إلى الجانب الثانى ، فَحَرَّكَ ذو النون الرجل النائم ففتح عينيه فقال : **يا فتى، انظرْ مِمَّ نجَّاك الله** ؟ . . هذه العقرب جاءت فقتلت هذه الحية التى أرادتك . .

ثم أنشأ ذو النون يقول :

يَا غَافِلاً والجليلُ يحفظهُ مِنْ كلِّ سوءٍ يدبُّ فى الظُّلَمِ
كَيفَ تنامُ العُيونُ عن مَلِكٍ يَأتِيْكَ مِنْهُ فَوائِدُ النِّعَمِ

فرفع الشاب رأسه ونهض وقال : إلهى ، هذا فعلك بمن عصاك ، فكيف فعلك بمن يطيعك ؟ . . ثم ساح » .

حديث مع بعض متعبدى العرب :

روى يوسف بن الحسين قال : قال ذو النون :

«دخلت على بعض متعبِّدى العرب فقلت له : كيف أصبحت؟ . . قال :

أصبحت فى بحابح نعمه أجول ، وبلسان فضله وإحسانه أقول : نعماؤه علىَّ باطنة وظاهرة ، وغصون رياض مواهبه علىَّ مشرقة زاهرة » .

سبحانه ما أمهله بالأنام :

قال : وقال ذو النون :

« دخلت على متعبدة ، فقلت لها : كيف أصبحت ؟

فقالت :

أصبحت من الدنيا على فناء ومبادرة فى أخذ الجهاز ، متاهبة لِهَوْل يوم الجَواز ، له علىَّ نِعَمٌ أعترف بتقصيرى عن شكرها ، وأتنصل عن ضعفى عن إحصائها وذكرها ، فقد غفلت القلوب عنه وهو مُنشيها ، وأدبرت النفوس عنه وهو يناديها ، فسبحانه .. ما أمهله بالأنام .. مع تواتر الأيادى والإنعام » .

أطِعِ اللّه إذا خَلَوْتَ يُجِبْكَ إذا دعوتَ :

وقال : « رأيت فى تيه بنى إسرائيل سوداء قد استلبها الوَلَهُ من حب الرحمن شاخصة ببصرها نحو السماء ، فقلت : السلام عليك يا أختاه .

قالت :

وعليك السلام يا ذا النون.

قلت : من أين عرفتنى ؟

قالت :

إن الله خلق الأرواح قبل الأجساد بألفى عام، ثم أدارها حول العرش، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف ، فعرفتْ روحى روحك فى ذلك الجَوَلان.

قلت : أراك حكيمة ، فعلِّمينى مما علَّمك الله .

قالت :

يا أبا الفيض ، ضع على جوارحك ميزان القسط : حتى يذوب كل ما كان لغير الله، ويبقى القلب نقيّاً لا شىء فيه غيره، فحينئذ يقيمك على الباب ، ويولِّيك ولاية جديدة ، ويأمر الخزَّان لك بالطاعة .

قلت : زيدينى .

قالت :

خُذْ من نفسك لنفسك ، وأطعِ الله إذا خلوت ، يُجِبْكَ إذا دعوت ، والسلام » .

من استغنى بالله أَمِنَ من العدم :

وقال :

« كنت فى جبل الشام فرأيت رجلاً قاعداً مُطْرِقاً فقلت :

ـ ما تصنع هنا ؟

قال : **أنظر وأرعى .**

قلت : ما أرى عندك إلا الأحجار فما الذى تنظره وترعاه ؟

فنظر إلىَّ مُغْضَباً ، وقال :

أنظر خواطر قلبى ، وأرعى أوامر ربى ، فبحقِّ مَنْ أطلعك علىَّ إلا رحتَ عنى .

قلت : كلمنى بشىء أنتفع به وأذهب .

قال :

« **مَنْ لزم الباب أُثبت من الخدم ، ومَنْ أكثر ذكر الذنوب أعقبه كثرة الندم ، ومن استغنى بالله أَمِنَ من العدم** » . . ثم تركنى ومضى» .

لا تُلهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكر الله :

وقال : « رأيت بسواحل الشام امرأة ، فقلت : من أين أقبلتِ ؟

قالت :

من عند قوم تتجافى جنوبهم عن المضاجع.

قلت : وإلى أين ؟

قالت :

إلى قوم لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله »(١) .

فى اليمن :

علامة الخوف من الله

وعن ذى النون قال :

« وُصِفَ لى رجل باليمن قد برز على الخافقين ، وسَمَا على المجتهدين ، وذُكِرَ لى بالحكمة ، ووُصِفَ لى بالتواضع والرحمة ، فخرجت حاجّاً ، فلما قضيتُ نُسُكى مضيت إليه لأسمع من كلامه ، وأنتفع بمواعظه أنا وأناس كانوا معى يطلبون منه مثل ما أطلب ،

(١) «الكواكب الدرية» ـ للمناوى .

ومعنا شاب عليه سيما الصالحين، فخرج إلينا، فجلسنا إليه، فبدأ الشاب بالسلام عليه، وصافحه، فأبدى له الشيخ البِشْرَ والترحيب، فسلمنا عليه جميعاً، ثم بدأ الشاب بالكلام فقال:

- إن الله بمَنِّه وفضله قد جعلك طبيباً لسقام القلوب، ومعالجاً لأوجاع الذنوب، ولي جرح قد تفل، وداء قد استكمل، فإن رأيت أن تتلطف لي ببعض مراهمك، وتعالجني برفقك.

فقال له الشيخ:

ما بدا لك ؟

فقال له الشاب: يرحمك الله، ما علامة الخوف من الله تعالى ؟

فقال:

أن يؤمِّنه خوفه من كل خوف غير خوفه.

ثم قال: يرحمك الله، متى يتيسر للعبد خوفه من الله ؟

قال:

إذا أنزل نفسه من الدنيا بمنزلة السَّقيم فهو يحتمي من أكل الطعام مخافة السَّقام، ويصبر على مضض كل دواء مخافة طول الضَّنا.

قال: فما علامة المحب لله ؟

قال:

إن درجة الحب درجة رفيعة.

قال: صِفْهَا لي ؟

قال:

إن المحبين لله شُقَّ لهم عن قلوبهم ؛ فـأبصروا بنور القلوب إلى عِزِّ جلال الله ؛ فعبدوه بمبلغ استطاعتهم له ، لا طمعاً فى جنته ، ولا خوفاً من ناره.

قال : فشهق الفتى وصاح صيحة كانت فيها نفسه » .

فى المغرب :

القرآن حديثه والذكر رفيقه

قال يوسف بن الحسين ، سمعت ذا النون يقول :

« وُصِفَ لى رجل بالمغرب . . وذُكِرَ لى من حكمته وكلامه ما حملنى على لقائه ، فرحلت إليه فأقمتُ على بابه أربعين يوماً على أن يخرج من منزله إلى المسجد ويقصدنى ، فكان يخرج وقت كل صلاة ويصلى ويرجع كالوَالِه لا يكلم أحداً .

قلت له يوماً :

يا هذا ، إنى مقيم هنا منذ أربعين صباحاً ، لا أراك تكلمنى ؟

فقال لى :

هذا لسانى سبعٌ إن أنا أطلقته أكلنى.

فقلت له : عِظْنى رحمك الله موعظة أحفظها عنك ؟

قال :

وتفعل ؟

قلت : نعم إن شاء الله .

قال :

لا تحب الدنيا ، وعُدَّ الفقرَ غِنًى، والبلاء من الله نعمة ، والمنع من الله عطاء ، والوحدة مع الله أُنساً ، والذل عِزّاً ، والحياة موتاً ، واليأس غفلة ، والطاعة حرفة ، والتوكل معاشاً ، والله لكل شِدَّة عُدَّة .

ثم مكثت بعد ذلك شهراً لا يكلمنى ، فقلت : رحمك الله إنى أريد الرجوع إلى بلدى ، فإن رأيت أن تزيدنى فى الموعظة ؟

فقال :

اعلم أن الزاهد فى الدنيا : قُوْتُه ما وجد ، ومسكنه حيث أدرك ، ولباسه ما ستره . الخلوة مجلسه ، والقرآن حديثه ، والله الجبار العزيز أنيسه ، والذِّكْر رفيقه ، والصمت جنبه ، والخوف سَجِيَّته ، والشوق مَطِيَّته ، والاعتبار فكرد ، والصبر وسادد ، والحكمة كلامه ، والعقل دليله ، والعلم خليله ، والجوع إدامه ، والبكاء دأبه .

قلت : بِمَ يتبين الزيادة والنقصان ؟

قال :

عند المحاسبة للنفوس ».

بِمَ عرفتَ الله ؟:

وروى أبو نعيم فى «الحلية» عن سعيد بن عثمان ، قال :

سمعت ذا النون يقول :

« وُصِفَ لى رجلٌ صالح فقصدته فأقمت على بابه أربعين يوماً ، فلما كان بعد ذلك رأيته ، فلما رآنى هرب منى ، فقلت له : سألتك بالله ، بم عرفت الله ؟ . . وبأى شىء تعرَّف إليك الله حتى عرفته ؟

فقال لى :

نعم ، رأيت أن لى حبيباً إذا قربت منه قرَّبنى وأدنانى ، وإذا بعدت عنه صاح بى وناداني ، وإذا قمت بالفترة رغَّبنى ومَنَّانى ، وإذا عملت بالطاعة زادنى وأعطانى ، وإذا عملت بالمعصية صبر علىَّ وتأنَّانى ، فهل رأيت حبيباً مثل هذا ؟ .. انصرفْ عنى ولا تشغلنى » .

إن لله عباداً لو أقسموا على الله لأَبَرَّهُمْ :

حدثنا أبو جعفر محمد بن عبد الملك بن هاشم ، قال :

قلت لذى النون :

ـ صِفْ لنا من خيار ما رأيت ، فذرفت عيناه وقال :

« ركبنا مرة فى البحر نريد جدة ، ومعنا فتى من أبناء نيف وعشرين سنة ، قد ألبس ثوباً من الهيبة ، فكنت أحب أن أكلمه فلم أستطع ، بينما نراه قارئاً ، وبينما نراه صائماً ، وبينما نراه مسبِّحاً ، إلى أن رقد ذات يوم ، ووقعت فى المركب تهمة ، فجعل الناس يفتش بعضهم بعضاً إلى أن بلغوا الفتى النائم . فقال صاحب الصُّرَّة :

ـ لم يكن أحد أقرب إلىَّ من هذا الفتى النائم .

فلما سمعت ذلك قمت فأيقظته ، فما كان منه إلا أن توضأ للصلاة وصلى أربع ركعات ، ثم قال :

ـ يا فتى، ما تشاء ؟

فقلت : إن تهمة وقعت فى المركب ، وإن الناس قد فتش بعضهم بعضاً حتى بلغوا إليك .

فالتفت إلى صاحب الصرة وقال :

ـ أكما يقول ؟..

فقال : نعم ، لم يكن أحد أقرب إلىَّ منك .

فرفع الفتى يديه يدعو وخفْتُ على أهل المركب من دعائه ، وخُيِّلَ إلينا أن كل حوت فى البحر قد خرج ، وفى فم كل حوت دُرَّة ، فقام الفتى إلى جوهرة فى فم حوت فأخذها فألقاها إلى صاحب الصرة ، وقال :

ـ فى هذه عِوَضٌ عما ذهب منك ، وأنت فى حِلٍّ » .

كيـف السخـاء ؟:

وعن محمد بن أحمد الشمشاطى ، قال : سمعت ذا النون يقول : « بينما أنا أسير فى جبال أنطاكية إذا أنا بجارية كأنها مجنونة وعليها جبة من صوف ، فسلمت عليها ، فردت السلام ثم قالت :

ـ ألست ذا النون ؟

قلت : عافاكِ الله ، كيف عرفتنى ؟

قالت :

عرفتك باتصال معرفة حب الحبيب . ثم قالت :

ـ أسالك عن مسألة ؟

قلت : سَلِى .

قالت :

كيف السخاء ؟

قلت : البذل والعطاء .

قالت :

هذا سخاء فى الدنيا ، فما السخاء فى الدين ؟

قلت : المسارعة إلى طاعة المولى لينال منه خيراً .

قالت :

لينال منه خيراً ؟!

قلت : نعم ، الحسنة بعشرة أمثالها .

قالت :

سِرْ يا بَطَّال ، هذا فى الدين قبيح ، ولكنَّ المسارعة إلى طاعة المولى أن يطَّلع على قلبك وأنت لا تريد منه شيئاً بشىء ، وَيْحَكَ يا ذا النون .. إنى أريد أن أطلب منه شيئاً ـ منذ عشرين سنة ـ فأستحى منه أن أكون كأجير السوء إذا عمل طلب أجراً ، ولكنْ أعمل تعظيماً لهيبته وعزته وجلاله . . ومرَّتْ وتركتنى »(١) .

كل مطيع مستأنس :

وقال : وجدت مكتوباً على صخرة ببيت المقدس :

« **كل عاصٍ مستوحش ، وكل مطيع مستأنس ، وكل خائف هارب، وكل راجٍ طالبٌ ، وكل قانعٍ غنيٌّ ، وكل محبٍّ ذليل** » .

---

(١) أخرجه أبو نعيم فى «الحلية» .

ففكرت فإذا هى أصول لكل ما استعبد الله به الخَلْق .

سبحانه.. ما أمهله للأنام !:

حدثنا سعيد بن الحكم قال : سمعت ذا النون يقول :

« دخلت على متعبدة ، فقلت لها : كيف أصبحت ؟

قالت :

أصبحتُ من الدنيا على فناء ، مبادرةً للجهاز ، متأهبةً لهول يوم الجواز ، لله علىَّ نِعَمٌ أعترف بتقصيرى عن شكرها ، وأقرُّ بضعفى عن إحصائها وذكرها ، قد غفلت القلوب عنه وهو مُنشيها ، وأدبرت عنه النفوس وهو يناديها .. فسبحانه : ما أمهله للأنام .. مع تواتر الأيادى والإنعام » .

فى بلاد الشام :

سبحان من أذاق قلوب العارفين حلاوة الانقطاع إليه

قال : وسمعت ذا النون يقول :

« بينما أنا أسير فى بلاد الشام ، إذا أنا بعابد خرج من أحد الكهوف ، فلمَّا نظر إلىَّ استتر بين الأشجار ثم قال :

أعوذُ بك ـ سَيِّدى ـ ممن يشغلنى عنك ، يا مأوى العارفين ، وحبيب التوابين ، ومُعين الصادقين ، وغاية أمل المحبين .

ثم صاح :

وا غَمَّاه من قلة البكاء ، وا كرباه من طول المكث فى الدنيا.

ثم قال :

سبحان من أذاق قلوب العارفين به حلاوة الانقطاع إليه ، فلا شىء ألذ عندهم من ذِكْره ، والخلوة بمناجاته .

ثم مضى وهو يقول :

قُدُّوسٌ ، قُدُّوسٌ ، قُدُّوس.

فناديته : أيها العابد ، قِفْ لى ؟ . . فوقف لى وهو يقول :

ـ اقطعْ عن قلبى كل علاقة ، واجعل شغله بك دون خَلْقك.

فسلَّمت عليه ثم سألته أن يدعو الله لى ، فقال :

ـ خَفَّفَ الله عنك مُؤَنَ نَصَبِ السير إليه ، وَدَلَّكَ على رضاه ، حتى لا يكون بينك وبينه علاقةُ طلبِ منفعةٍ أو دنيا ..

ثم سعى من بين يدىَّ كالهارب من سبع » .

* * *